المحـاضرة التاسعة: المدرسة التوزيعية. **الأستاذة: وفاء دبيش.**

مقدمـــــــة:

لم تكن الدراسات اللسانية الأمريكية بمنأى عن التطورات المنهجية التي اشتهرت في أوروبا منذ القرن التاسع عشر حيث توفرت تقريبا - الشروط نفسها التي انطلق منها الأوروبيون، غير أنهم لم يكتفوا فقط - بتتبع عوامل الاشتغال الخارجي التاريخي المقارن للسان، وكذلك تحليل البنية الداخلية له ونقد مختلف الرؤى التي ظهرت في القرن العشرين، وإنما استدعوا طرائق خرى اشتهرت لدى علمائهم مثل الأنتروبولوجية وعلم النفس مع نزعة تعليمية برغمائية واضحة، كل هذه المعارف أصبحت مرجعية أساسية لإقامة دعائم الدرس اللساني، وكما كان الحال عند الإنجليزيين كان الفكر الأمريكي عموما متحررا من الإرث الإغريقو روماني واللاتني بعده، وكانت تركيبة المجمع الأمريكي خليطا يضم إلى جانب الأمريكيين والسكان الأصليين الذين يتكلمون اللغة الهندو أمريكية، أوروبين وأفارقة، الذين شكلوا تاريخا موجز جدا من التلاغ والتطور تما جعله فسيفساء لغوية وواثنية وعرقية .. هذه المظاهر أدت إلى تنشيط بعض العلوم وعلى رأسها "علم الإنساة" الذي سيصبح عندهم قاطرة العلوم الإنسانية ككل.

ومن المدهش فعلا - أن ننظر إلى الدرس اللساني الأمريكي الحديث ومقارنته بنظيره الأوروبي مع تسجيل ملاحظات ونقود خلافية وتفصيلية، ويرتاح بعض النقاد إلى رصد نقاط التشابه والمطابقة بينهما، في حين أن اللسانيات التي طورها سوسير وأمتها علماء علماء من بعده بنظريات وتطورات والتخلي عن بعض الأفكار ذات الدور الهامشي إنما هي لسانيات بدأت لأول مرة في أمريكا وعلى يدي ويليام وايتني أحد آباء الفكر اللغوي والفيلولوجي للفكر الأمريكي ككل، وبالتالي فإن اللسانيات التي انتقلت إلى أمريكا إنما في الواقع قد عادت إلى موطنها الأصلي والإلى المكان الذي بدأ منه كل شيء محملة بما اكنسبته من صقل

وخبرة لتعلن عن بداية مرحلة جديدة من مراحلها التطورية.

1-أعلام النظرية التوزيعية:

التوزيعية من النظرية التي تقابل عند الكثير من الدارسين البنيوية الأمريكية التي يعتبر "إدوار ساير (E. Sapir) "[1] من أوائل روادها وقد نشر كتابه بعنوان (اللغة) عام (1921م) [2] والذي ألخ في مقدمته على الجانب الإنساني للغة باعتبارها نظاما من الرموز فوظيفة اللغة عنده ليست غريزية، ولكنها ثقافية مكتسبة، فبعد أن يدرس المشاكل الصوتية بتناول قضية الشكل اللغوي والبنية

(1) -المرجع السابق، ص: 140.

(2)علم اللغة في القرن 20 . جورج مونان، تر: نجيب غزاوي، ص: 87.

القاعدية، فيؤكد أن الحقيقة اللغوية الجوهرية تتمثل في التصنيف والنمذجة الشكلية للتصورات.
فاللغة هي الجانب الداخلي وأمّا الشكل فينبغي دراسته من وجهة نظر الوظيفة المنوطة به، ولا بد فيما يتصل بهذا الشكل من التمييز بين الصيغ التي تستخدمها لغة ما في عملياتها التحوية، وبين توزيع التصورات بالنسبة للتعبيرات المختلفة في نماذج صوتية شكلية. [1]
ويأتي العالم اللغوي (رائد اللسانيات الأمريكية "ليوناردو بلومفيلد) " (LeonardBloomfieldنشر كتابه بنفس العنوان اللغة عام (1933م) حيث تناول فيه أيضا اللسانيات البنيوية، وقد عد كتابه أهم دراسة منهجية للغة في القرن 20، حيث ما زالت مبادئه هي السائدة بين جمهور الباحثين، وتتحدّد اللسانيات عنده بعاملين بهدفها العلمي، وهو ضرورة دراسة لغات الهنود الحمر وثقافتهم التي لم تبحث وتدون من قبل، وبالتأثير العلمي للنظرية السلوكية. [2]
ويتزعم النظرية التوزيعية وتتجسد مبادؤها مع العالم "زليج "هاريس Zellig) " (Harrisالمؤسس الفعلي لها الذي أضاف الكثير إلى أفكار "بلومفيلد"، وقد نشر كتابه الشهير (مناهج في اللسانيات البنيوية) والذي يعتبر الكتاب الأساس في اللسانيات التوزيعية، شرح فيه أفكاره، كما نشر عام 1912م) مقالة بعنوان قواعد التحويل (Transformer grammar)الذي أشار فيه إلى استعمال الرموز لتحليل الجملة، وتحدث أيضا عن الجملة التوليدية، ومعايير التوليد والقوانين اللازمة الشكل للتحويل.

1-مفهوم التوزيع

هو منهج في التحليل يرتكز على مبدأ الإحلال والاستبدال، وهذه الفكرة أخدها هاريس عن أستاذه "بلومفيله" وحاول صياغتها وتطويرها على شكل جديده وتقوم على التحليل الوحدات اللغوية بتقسيمها إلى فئات الدراجية (فئة الأسماء، فلة الأفعال فئة الحروف والأدوات، فئة المبتدأ، فئة الخبر، فئة الحال)
تقوم نظريته على إضافات أدخلها على ما جاء به من سبقه من اللسانيين خاصة أستاذه بلومفيلد مثل: مبدأ التحليل إلى مكونات قريبة، ومبدأ الدراسة العلمية القائمة على الوصف والتصنيف، ومبدأ إقصاء المعنى من التحليل.. وغيرها مما أضاف عليه هاريس وصاغه في نظرية متكاملة سميت بالنظرية التوزيعية ونسبت إليه.

2-أهم المبادئ التي تميزت بها التوزيعية:

(1)نظرية البنائية في النقد الأدبي، صلاح فضل، دار الشروق القاهرة، مصر، دط، 1998م، ص: 96.
(2) اللسانيات النشاة والتطور ، احمد مومن، ص 145

تسعى النظرية التوزيعية (distributionnalisme) إلى وصف الوحدات اللسانية وتحديدها في لسان ما من أجل تصنيفها في شكل أقسام (أو فئات) نحوية بعد أن يتم استخراجها من المدونة.
يتميز هذا الإجراء بكونه يتجاوز عملية التحليل المحصورة في الطبيعة الخطية أي أنه لا يكتفي بالوقوف على العلاقات القائمة بين وحدات الجملة الظاهرة فحسب بل يسعى عن طريق تطبيق مفهوم العلاقات الاستبدالية - إلى معرفة جميع العلاقات الممكنة بين الوحدات الظاهرة وغير الظاهرة التي يمكن أن تحل محلها على مستوى المحور الاستبدالي في السياق اللغوي نفسه ما يسمى بالتحليل التوزيعي في نظرية هاريس تسمى توزيعا لوحدة ما مجموعة وحدات المحيط (الوحدات الموجودة عن اليمين وعن اليسار) التي نعثر بداخلها على تلك الوحدة. وتبرز الوجهة المنهجية للتوزيع، في كونه يقوم على ما تصنعه العلاقات على مستوى التواتر في السياق نفسه، ومن هنا؛ فهي بدائل توزيعية فلي المثال التالي: أعطى على السائل درهما، تجد الفعل أعطى" يشترك مع مجموعة من الأفعال (وهي الأفعال الماضية والمتعدية إلى مفعولين...) في الموقع نفسه (أي التوزيع نفسه)
-لقد كانت القاعدة الإجرائية الهامة التي انطلق منها هاريس لصيغة مفهوم التوزيع وتطبيقه في نظريته هي مفهوم المكونات الغربية، ذلك المفهوم الذي أخذه هاريس عن أستاذه بلومفيلد ثم طوره واستغله لإجراء مستويات تحليلية تبدو أنضج رؤية وأكثر استيعابا لبنية اللغة.
-يتمثل التوزيع عند هاريس في أدنى حالاته، في توزيع الفونيمات في المباني الصرفية مثل ما بين قال جال، طال، سال، لإبراز القيمة الخلافية فيما بينها على أساس مواقعها التوزيعية المنتظمة وتقابلها التصنيفي (لا الوظيفي كما هو عليه مبدأ الدراسة الوصفية عند الأوربيين. كما يتمثل في توزيع الوحدات الدالة في الجمل.
ومن خصائص النظرية التوزيعية قوله بمبدأ الربط البنوي بين العناصر اللغوية بدها بالفونيم ثم المورفيم ثم الجملة ثم النص المؤتلف ويعتبر هاريس الرائد المؤسس – مخالفا في ذلك للبنوبين الذين حصروا لسانياتهم في حدود الجملة وفي مقدمتهم أستاذه بلومفيلد لفكرة التحليل اللساني المتجاوز حدود الجملة إلى الخطاب...
-ومن أجل وصف الوحدات وصفا علميا مأخوذا عن التنظيم التوزيعي الموضوعي لنظام اللغة يستبعد هاريس - كأستاذه بلومفيلد كل رجوع إلى المعنى في التحليل (إقصاء المعنى) ولقد أصر من أجل الوصول إلى حد أقصى من الموضوعية على بناء كل الوصف العلمي على عرض توزيعات الوحدات أو الفونيمات أو الكلمات فقط. غير أن هاريس وجد صعوبة في الالتزام بهذا الموقف العلمي المتصلب دفعه إلى أن يدخل في تحليلاته معايير معنوية وجعله يقبل بشكل واع مظاهر الضعف المنهجي في نظريته التوزيعة.

-اكتشافه لفكرة النواة (أو الجملة النواة والتحويلية التي تربط بين جملتين. فهو يرى أن بنية لغة ما تتمثل في مجموعة جملها النواة ولقد توصل هاريس بهذا الاكتشاف إلى نتائج شبيهة جدا بنتائج تشومسكي في المحوه التوليدي فقد أدرك منذ 1951 الترابط بين السؤال والجواب وبين المبني للمعلوم والمبني للمجهول وقد عرف القواعد على أنها مجموعة التعليمات التي تسمح بتوليد جمل لغة ما.

3- أهمية المورفيمات:

تتألف اللغة من وحدات لغوية تفرزها عملية التقطيع، وهو ما يقابل عند دي سوسير " موضوع العلامة اللسانية وهم يفضلون مصطلح المورفيمات(Morphème ، واعتبار المورقيم كوحدة دنيا تفيد دلالة يفردها التحليل وترجع المناقشات حول المورفيمات عادة قضايا تخص الشكل، فالمعنى في حد ذاته لا يدرك موضعه، ولا نحصل إلا على معاينة أوجه التماثل وأوجه التباين الدلالية، فقد ارتكز التوزيعيون بشكل واضح على مبادئ دي سوسير وإن بدا لنا بعض الاختلاف بينهم وبينه، فليس إلا صيغة خاصة أرادها التوزيعيون لأنفسهم ليتميزوا عن باقي المدارس اللسانية الأخرى. (1)

4 - إقصاء المعنى:

إن الدراسة اللسانية من وجهة نظر التوزيع ترفض الانطلاق من المعاني التي تأتي وراء الأشكال اللغوية وتعد أسبابا لها ولانتظامها، إن كل شيء في الوصف اللساني يجري على السطح المنطوق أو المكتوب وكل محاولة تسعى إلى البحث عن أشياء خلف السطح هي وهم منهجي عقيم، ولهذا الأمر يصر التوزيعيون على استبعاد المعنى استبعادا كليا في التحليل اللغوي، ليس لأنه لا أهمية له، بل لإيمان أصحاب هذه المدرسة بأن المعنى لا يمكن إخضاعه لنوع الدراسة الوضعية العلمية الدقيقة، فالتحليل الدلالي لا يمكن أن يطمع للوصول بأي حالة للدقة العلمية المتاحة للتحليل الشكلي للمادة اللغوية كما تلاحظ وتسجل. (2)

خـــــــــــــاتمة:

تشكل المدارس اللسانية الأمريكية وبخاصة التوزيعية والسلوكية دفعا جديدًا للسانيات العامة في الفترة الحديثة والتي تلقي بضلالها على المدارس والنظريات والمناهج المعاصرة وبخاصة على المدرسة التوليدية التحويلية بمختلف مناولها، لأن النظرية الحقيقية هي النظرية التي تستطيع إضافة إلى محامها إنشاء وتطوير نظريات أخرى، وهذا شرط أساسي في علم معرفة النظريات (إبيستيمولوجية النظرية) وهذا الإنشاء ليس مشروطًا بتطوير مفاهيمها التي يتفق العلماء حول صحتها وإنما أيضا في نقدها وإبراز مواطن الضعف والوهن فيها فلا وجود بذلك لنظرية نهائية أو لنظرية غير قابلة للدحض في مفاهيم ومبادئ العلم.

---

(1)علم اللغة في القرن 20 جورج مونان، ص:382

(2) -اللسانيات النشأة والقطور، أحمد مومن، ص: 149